تنمية الرافدين ٧٨(٢٧) ٢٠٠٥
ص ص [١٤٥-١٥٧]

اثر حركة الاكتشافات الجغرافية في عملية التراكم الاولى لرأس المال في اوربا

الدكتور الويس عبوش هدايا
استاذ مساعد/كلية الإدارة والاقتصاد
جامعة تكريت

المستخلص

يهدف البحث الى دراسة اثر حركة الاكتشافات الجغرافية في عملية التراكم الأولى لرأس المال في أوربا معتمدا على المنهج التحليلي التاريخي وتضمن البحث ثلاثة مباحث رئيسة تناول المبحث الاول العوامل التي مهدت لحركة الاكتشافات الجغرافية، أما المبحث الثاني فقد استعرض تطور تلك الحركة في حين تناول المبحث الأخير العوامل التي أدت الى عملية التراكم الأولى لراس المال.

وتوصل الباحث الى عدد من الاستنتاجات منها أن تلك الحركة ادت الى تراكم رأس المال من خلال أساليب النهب والسلب للمعادن النفيسة والمتاجرة بالعبيد فضلا عن التجارة غير المتكافئة بين أوربا والمستعمرات مما ادى الى تراكم رأس المال الذي تم استثماره في القطاعات الإنتاجية ليخلق المزيد ليخلق المزيد من الثروة التي ادت بدورها الى الانتعاش الاقتصادي في اوربا .

مقدمة

لقد مهدت حركة الاكتشافات الجغرافية الأوربية التي بدات منذ بداية القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن السابع عشر الى بدء اكبر حركة للاستعمار المنظم لمناطق واسعة في أفريقية واسيا وأمريكا تلك الحركة التي استهدفت اكتشاف طرق جديدة للتجارة الأوربية مع الشرق الأقصى وانتهت باستعمار العالم الجديد ونهب ثرواته وابادة شعوبه والاستيطان في اراضيه ليتكون مزيج من الأفارقة والبيض (الاوربيون) والسكان الاصليون (الهنود الحمر) ومنذ ذلك الحين بدات عملية تراكم الثروة في أوربا عن طريق عمليات النهب والسلب تارة والتجارة غير المتكافئة تارة أخرى، اذ حققت اوربا من تلك الحركة ثروات طائلة والتي تم استثمارها في اوربا من جديد محققة بذلك تراكم متزايد لراس المال المستثمر في النشاطات الاقتصادية.

هدف البحث

يهدف البحث الى عرض الاساليب الاستغلالية التي استخدمتها الدول الاوربية في نهب ثروات المستعمرات والتي ادت الى تخلف تلك البلدان حتى الان .

تاريخ التسلم ٢٠٠٤/٧/١٨ _____ تاريخ قبول النشر ٢٠٠٥/٥/٥

أهمية البحث

تاتي اهمية البحث من ضرورة إدراك الدول النامية ان الاستعمار الاوربي كان السبب الرئيس ولازال في تخلف تلك البلدان .

فرضية البحث

ينطلق البحث من الفرضية القائلة ان حركة الاكتشافات الجغرافية وما نتج عنها من نهب وسلب ثروات تلك المناطق المكتشفة بالقوة تارة او بالاستغلال التعسفي عن طريق شراء المواد الاولية باسعار بخسة وبيع السلع المصنعة باسعار باهضة، فضلا عن تجارة الرقيق (العاج الاسود) تارة اخرى ادت الى تراكم راس المال الاولي والذي مهد لنشوء الراسمالية التجارية وتطور الاقتصاد الاوربي

منهجية البحث

اعتمد الباحث على المنهج التحليلي التاريخي في اثبات فرضية البحث معتمدا على المصادر العربية والاجنبية المتوفرة في هذا المجال.

ومن اجل التوصل الى هدف البحث تطلب تقسيمه الى ثلاثة مباحث رئيسة تناول المبحث الاول العوامل التي مهدت لحركة الاكتشافات الجغرافية، اما المبحث الثاني فقد تناول تطور تلك الحركة، أما المبحث الثالث فقد تعرض الى العوامل التي ادت الى تراكم رأس المال الاولي في اوربا، وانتهى البحث بالخلاصة والاستنتاجات.

اولاً- العوامل التي مهدت لحركة الاكتشافات الجغرافية

شهدت اوربا في القرن الخامس عشر تطورات كبيرة في جميع الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية وخاصة ما يتعلق بحركة الاصلاح الديني وبداية عصر النهضة الاوربية وقيام الدول القومية ... الخ، وقد مهدت تلك العوامل الى تطور حركة الاكتشافات الجغرافية والتي يمكن حصرها بالعوامل الاتية:

١. العوامل الاقتصادية

ادت الحروب الصليبية(*) الى انتعاش التبادل التجاري بين الاوربيين والشرق الاسلامي بعد ان اطلع الاوربيين على بعض المنتجات الجديدة التي لم يعرفوها من قبل كالتوابل والقطن والحرير والاخشاب، وادى ذلك الى زيادة الاهمية الاستراتيجية للبحر المتوسط وازدهرت المدن الواقعة على سواحله واحتكر تجار البندقية وجنوه تجارة التوابل وغيرها من السلع وحققوا من تلك التجارة ارباحا طائلة وقد اثار احتكار تجار البندقية وجنوه للتجارة مع بلاد الشرق، فضلا عن فرض مكوس ورسوم كمركية عالية على التجارة العابرة في العالم الاسلامي الى بقية الدول الاوربية الاخرى مما دفعها للبحث عن ايجاد طرق بديلة للوصول الى كنوز الشرق والاستيلاء على تجارته (البيرماني، ١٩٦٨، ٤٦-٤٧). هذا من ناحية ومن ناحية

(*) وهي سلسلة من الحروب (الحملات العسكرية) التي شنتها اوربا المسيحية على الدول الاسلامية والتي استمرت قرابة قرنين تقريبا من عام (١٠٩٦-١٢٩١) ويختلف المؤرخون في تفسير اسبابها فمنهم من يعزونها الى اسباب دينية والبعض الاخر الى اسباب اقتصادية .

اخرى فان استيلاء الاتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م واجزاء اخرى من اسيا الصغرى وفلسطين وشمال افريقية ادى الى قطع جميع المنافذ والطرق التقليدية التي كان يستخدمها الاوربيون لنقل المنتجات الضرورية من بلاد الشرق الى اوربا بحيث اصبحت تجارة الشرق لاتصل اليهم الا بعد ان تمر بعدة احتكارات ترفع من اسعارها وتجعلها في بعض الاحيان نادرة وذلك بسبب فرض الرسوم الكمركية العالية، فضلا عن احتكار تجار البندقية نقل تلك البضائع من موانئ البحر المتوسط الى اوربا (البطريك، ١٩٧١، ٤٧) .

٢. العوامل الدينية

يشير بعض المؤرخين ان العامل الديني كان له تاثير كبير في تحفيز الاوربيون على القيام بالمغامرات الاستكشافية، خاصة وان الاسبان كانوا يحتفظون بمعلومات عن بلاد يستطيعون جعلها ميدانا للتبشير بالديانة المسيحية والانتقام من المسلمين، ومن الادلة على ذلك ان الملاح البندقي كريستوف كولمبس ذكر في خطاباته على تصميمه في استخدام ثروة الشرق في انقاذ بيت المقدس من المسلمين، وكذلك الأمير هنري الملاح الذي قام بحروب تشبه الحروب الصليبية ضد المسلمين في شمال افريقية عام ١٤١٥، وكان يأمل ان يؤدي وصوله الى الساحل الغربي لأفريقيا تحقيق هدفين أولهما الوصول الى الهند والشرق وثانيهما الوصول الى مملكة القديس يوحنا في شرق أفريقيا وهي المملكة المسيحية التي كان الاوربيون يسمعون عنها ويتناقلون أخبار قوة حاكمها ويرغبون في محالفتهم لعلهم يتخذونها قاعدة لهم في قلب أفريقية للانقضاض على الدول الإسلامية التي كانت تحتكر التجارة (البطريك، ١٩٧١، ٤٧).

٣. تطور حركة النهضة العلمية

شهدت أوربا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حركة علمية متطورة ادت الى بعث الثقافة والمعرفة القديمة التي وضعت الاسس لتطور العلوم والفنون وازداد الاهتمام بالعلوم الطبيعية وتطوير التقنية وفنون الانتاج كما تم اكتشاف العديد من القوانين الطبيعية التي استند على التجربة العلمية بعيدا عن اللاهوت والميتافيزقيا. وكان من اهم تلك الاكتشافات قانون الجاذبية واثبات كروية الأرض، فضلا عن التطور في علم الفلك، وخلاصة القول ان تلك الفترة تميزت ببعث العلم والفن والمعرفة والبحث والتقصي وحرية الفكر والبحث عن الحقيقة ... الخ والتي ادت الى النهضة الأوربية بعد فترة سبات طويل في القرون الوسطى وكان من نتائج عصر النهضة الأوربية تحسين في طرق النقل ووسائله وبناء السفن وتطور كبير في فنون الملاحة واستخدام البوصلة الامر الذي ساعد على نقل كميات كبيرة من السلع الى مسافات بعيدة، فضلا عن التوسع في حركة الاكتشافات الجغرافية وما رافقها من التوسع في التجارة (Wittaker , 1951, 21-33) .

ثانياً- تطور حركة الاكتشافات الجغرافية

لقد شجعت العوامل او الدوافع السالفة الذكر الأوربيين على البحث عن طرق اخرى للوصول الى الشرق ولاسيما الهند، وكانت البرتغال في مقدمة الأقطار الأوربية في مجال الكشف الجغرافي، وتبدا هذه الحركة بالأمير هنري الملاح

١٣٩٤-١٤٦٠ والذي بدا نشاطه في الكشف منذ عام ١٤١٥ واستولى عام ١٤١٩على ميناء لاغوس (lagos) وفي عام ١٤٢٠ وفق هنري الى اكتشاف جزر ماديرا (Madeira) التي تميزت بخصوبة ارضها واعتدال مناخها كما اكتشف جزر كناري وازور وكورفو وبذلك استحوذت البرتغال على عدة جزر في المحيط الاطلسي (عفيفي وعبد الكريم، ١٩٥٤، ١٠٠-١٠١) .

وفي عام ١٤٩٨ تم اعداد حملة بحرية بقيادة فاسكودي كاما (Vascco Gama) لمواصلة الرحلة الى الهند، ونجح كاما في الوصول الى الهند، واستطاع البرتغاليون بعد عشرين سنة من الحروب مع الاتراك والعرب والبنادقة من تثبيت اقدامهم وتعزيز تجارتهم مع الهند، واحتكروا التجارة بين الشرق واوربا وخاصة تجارة التوابل، وفي عام ١٥١١ توغل البرتغاليون في البرازيل وبذلك اصبحت لشبونة مركزا لتجارة الشرق الى ان فقدت البرتغال اجزاء كبيرة من امبراطوريتها اثناء حكم الأسبان (عفيفي وعبد الكريم، ١٩٥٤،١١١).

ولم تتخلف اسبانيا عن جارتها البرتغال في مجال الكشف الجغرافي فما ان نجحت في استعادة الهيمنة على البلاد وازاحة العرب المسلمين وتحقيق وحدتها حتى بدأت ميدان الاكتشافات الجغرافية مدفوعة بالدوافع البرتغالية نفسها وهي الاستحواذ على تجارة الشرق والتخلص من احتكار جنوه والبندقية. وتم اعداد حملة بحرية بقيادة الامير الجنوي كريستوف كولمبس عام ١٤٩٨ ليصل الى الشرق عن طريق الابحار غربا، ولكنه لم يكتشف الهند وانما وجد جزر الانتيل وجزيرة جاميكا، وكان الأسبان ما زالو يعتقدون بانهم اكتشفوا الهند ولهذا اطلقوا عليها جزر الهند الغربية وتوفي كولمبس وهو مايزال يعتقد انه اكتشف اجزاء من الهند، ثم ارسلت الحكومة الأسبانية بعثة اخرى بين الفترة ١٥١٩ ــ ١٥٣٢ عهد بها الى ماجلان لتقوم برحلة حول العالم واستطاع ان يصل الى الطرف الجنوبي الاقصى لأمريكا الجنوبية وواصل سيرة في الميط الهادي حيث وصل الى اجزاء من الفلبين، ولكن ماجلان لقى مصرعة على يد احد السكان هناك (عفيفي وعبد الكريم، ١٩٥٤، ١٢١-١٣٠).

وهكذا بدأت قيمة الاكتشافات الجغرافية تظهر بين عام ١٥٢٠ ــ ١٥٣٠ اذ عثر على مصادر للمعادن الثمينة (الذهب والفضة) وبدا الذهب يتدفق الى اسبانيا، وبقيت اسبانيا اغنى الدول الاوربية ولكنها لم تحسن استخدام هذه الثروات الطائلة في تطورها الاقتصادي .

اما الكشف الجغرافي الهولندي فقد بدأ مع نهاية القرن السادس عشر ففي خلال الفترة ١٥٩٥-١٦٠١ أبحرت خمس عشرة قافلة نحو الشرق ووصلوا الى الهند واستطاع الهولنديون بعد حرب مع البرتغال انتزاع سيلان منهم ووصلوا الى الصين ووسعوا تجارتهم مع اليابان كما كونوا مستعمرات لهم في امريكا وانتزعوا من أسبانيا جزءاً من البرازيل وارسلت شركة الهند الشرقية بعثة عام ١٦٤٢ برئاسة تسمان للتعرف على معالم المحيط الهادي والأطلسي والتعرف على قارة استراليا وقد وصل تسمان الى الجزيرة التي سميت باسمه (جزيرة تسمانيا) ثم اتجه جنوبا فاكتشف الجزر الجنوبية في نيوزيلندة (عفيفي وعبد الكريم، ١٩٥٤، ١٤٣).

ثم دخلت فرنسا ميدان الكشف الجغرافي مع القرن السادس عشر، واتجهت جهود الفرنسيين نحو المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من أمريكا الشمالية وقام

الرائد الفرنسي جاك كارتية بثلاث رحلات الى العالم الجديد بين عامي ١٥٣٤-١٥٤٢ وكشف عن نهر سنت لورنس وكندا وواصل رحلته الى منطقة البحيرات العظمى ثم تابع نهر المسسبي جنوبا حتى مصبه، ودخلت فرنسا مجال التنافس الاستعماري مع كل من هولندا واسبانيا وبريطانيا.

وقد عمل المستعمرون الفرنسيون على استغلال الهنود الحمر وانتزاع الأرض منهم وطردهم. كما كان للبعثات الدينية التي ارسلتها فرنسا الى تلك البلاد دور كبير في توطيد الاستعمار الفرنسي ونشر الثقافة الفرنسية (عفيفي وعبد الكريم، ١٩٥٤، ١٦٤).

كما امتد النشاط الفرنسي نحو الشرق واقامت مركزا تجاريا في كلكتا ثم تطلعت الى السنغال، وكان التجار الفرنسيون يواجهون منافسة شديدة من التجار الايطاليون والهولنديون والانكليز، وكان للبضائع الكمالية الفرنسية سوق رائجة في أسبانيا، وكان لزيادة الطلب على السلع الفرنسية في المستعمرات تأثير كبير في تطوير الصناعة والزراعة في فرنسا، الا ان فرنسا اصابها الضعف والانحلال في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بسبب الحروب المستمرة مع بريطانيا، اذ فقدت الكثير من مستعمراتها (البيرماني، ١٩٦٨، ٥٣).

اما بريطانيا فقد دخلت ميدان الكشف الجغرافي في نهاية القرن الخامس عشر، ونال كابوت Jhon Capot موافقة الملك هنري السابع حتى يبحر غربا ليصل اسيا، فقام برحلته سنة ١٤٩٧، ووصل الى جزيرة بريتون واعلن ان الأرض التي وصلها هي الشاطئ الشمالي الشرقي لاسيا، ثم واصل رحلته فوصل الى كربلاند، ثم اتجه غربا فوصل الى الشاطئ الامريكي وهو مايزال يعتقد انة جزء من اسيا، ثم توالت الرحلات الانكليزية حين قام الرحالة جلبرت Gillbert بالابحار الى جزر نيوفوندلاند سنة ١٥٧٨، وتقدم الاستعمار البريطاني بخطوات بطيئة في اول الامر وذلك لعدم عثورهم على معادن نفسية وبعد ذلك فقدوا حافزا قويا كان يدفعهم للبحث والمغامرة، ولذلك بدأ نشاطهم في النصف الثاني من القرن السادس عشر على شكل اساطيل من سفن الصيد تخرج في مواسم معينة لصيد السمك وبيعه في اوربا ثم أتجه الانكليز الى تجارة الفراء ودخلوا منافسة مع الفرنسيين والهولنديين وسيطروا على خليج الهدسن وأنتعشت تجارة الفراء ولاسيما بعد تنازل فرنسا عن كندا لبريطانيا، كذلك امتدت اطماع بريطانيا الى الهند ولما واجهت منافسة قوية من الهولنديين والفرنسيين اضطر التجار البريطانيون الى تأسيس شركة الهند الشرقية وقد منحتها الملكة اليصابات حق احتكار التجارة في المحيطين الهادئ والهندي لمدة خمس عشرة سنة، وقد دخلت الشركة منافسة حادة ضد الهولنديين في جاوة وجزر التوابل التي تجاوزت ارباحها كل تجارة اخرى حتى ان بعض الرحلات التي كانت تمولها شركة الهند الشرقية حققت ربحا قدرة ٢٠٠% وانشات الشركة محطات بالهند واجزاء من الملايو واليابان، ولكنها في النهاية فشلت في منافسة الهولنديين في هذا المجال، وفي سنة ١٦٢٢ انتزعت بريطانيا مضيق هرمز من البرتغاليين وبذلك سيطرت على الخليج العربي، واستطاعوا ان يسيطروا على مدراس وبومباي اللتين اصبحتا اهم مركزين تجاريين في الهند.

ثالثاً- اثر الاكتشافات الجغرافية على التراكم الأولى لرأس المال

لقد أدت الاكتشافات الجغرافية الى استحواذ الدول الأوربية على المستعمرات في أفريقيا واسيا وأمريكا، وبذلك مهدت لمرحلة الاستعمار الذين استغل تلك الشعوب ابشع استغلال عن طريق عمليات النهب والسلب لثرواتها او من خلال التجارة غير المتكافئة مما أدى الى انتعاش اقتصادات الدول الأوربية وتخلف شعوب تلك المستعمرات، وقد أدت تلك الاكتشافات إلى تراكم رأس المال الأولى في اوربا والذي أدى بدوره الى تتطور اقتصادات الدول الأوربية من خلال عدد من العوامل منها :

١. المذهب التجاري(*) (السياسات التجارية) وعملية تراكم رأس المال

لقد اعتقد التجار أن التجارة الخارجية أساس الثراء لذلك يجب ان تقوم الدولة بدعم النشاط التجاري إلى أقصى حد لأنها الوسيلة الوحيدة لزيادة ثرائها وقوتها عن طريق الحصول على اكبر كمية من المعادن الثمينة (الذهب والفضة)، لذلك شهدت تلك الفترة اعنف أشكال الصراع لتقسيم العالم بين الدول الأوربية وقد سيطر رأس المال التجاري سيطرة كاملة في هذه المرحلة. واصبح التجار يساندهم الحكام والملوك يلعبون دورا بارزا في الحياة الاقتصادية والسياسية (سلمان، ١٩٦٦، ٤٢).

وعلى الرغم من ان السياسات التجارية للدول الأوربية تجمعها بعض الخصائص المشتركة ولا سيما ما يتعلق بالاستحواذ على اكبر كمية من المعادن الثمينة ومنع خروج تلك المعادن خارج البلاد، الا أن انها اختلفت فيما بينها من حيث الوسائل التي استخدمتها تلك الدول. ويمكن عرض بعض هذه السياسات وتحديد دورها في عملية التراكم وعلى النحو الاتي :

- الاستعمار البرتغالي والأسباني

كانت البرتغال في طلائع الدول الاستعمارية في مجال الاكتشافات الجغرافية ولكنها تعرضت لمنافسة حادة في وقت مبكر من بقية الدول الأوربية، وقد تعرضت المستعمرات التي خضعت للبرتغال الى عمليات نهب وسلب لا رحمة فيها وبالذات في أفريقية، حيث الذهب الذي ينتج في كثير من مناطق أفريقية وبالأخص الذهب السوداني وكان حصن المينا الموجود في غانا مركزا لتجمع كميات الذهب المنهوبة، وقد اطلق على ذلك الاقليم (ساحل الذهب) بسبب الارباح الهائلة التي حصل عليها البرتغاليون (زكي، ١٩٨١، ٢٣)، فضلا عن ذلك اطلع البرتغاليون على بعض المحاصيل الاستوائية الغالية الثمن كالعاج والريش والمحاصيل الزيتية التي كان يتم بيعها باسعار مرتفعة في اوربا. يضاف الى ذلك تجارة التوابل التي كانت تجلب من بلاد الشرق الاقصى الى اوربا والتي حقق البرتغاليون من خلال هذه التجارة غير المتكافئة ارباحاً طائلة (زكي، ١٩٨١، ٢٥).

ولكن الارباح الطائلة التي حققها البرتغاليون من أفريقية كانت من تجارة العبيد التي يندى لها جبين الانسانية، اذ قدر ما نقل من افريقية من العبيد والذي كان يطلق عليه (بالعاج الاسود) خلال ثلاثة قرون حوالي عشرين مليون من البشر، اذ كانت

(*) رمزي زكي، التاريخ النقدي للتحلف، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١، ص٢٣.

تستخدم اقسى وافظع وسائل العنف في اقتناص ونقل وبيع العبيد (Heaton, 1952, P245).

وعلى الرغم من الارباح الطائلة التي حققتها البرتغال من عمليات النهب والسرقة والتجارة غير المتكافئة فانها لم تستطع تطوير اقتصادتها بسبب تزايد نفقات الملك وحاشيته، فضلا عن تأخرالقوى المنتجة مما ادى الى تسرب المعادن النفيسة خارج البلاد، بحيث اضطر الملوك في كثير من الاحيان الى الاقتراض من بنوك المانيا وايطاليا.

اما اسبانيا فقد استطاعت ان تفرض هيمنتها على العديد من مناطق العالم الجديد في امريكا وبذلت اقصى جهودها في البحث عن الذهب وخاصة في بيرو والمكسيك، واستطاع الاسبان ان يجنوا ثروات طائلة وكميات كبيرة من الذهب والفضة، وفي نشوة تحقيق هذا الحلم كتب كولمبس في رسالة بعث بها من جاميكا عام ١٥٠٣ يقول (ان الذهب شيء ساحر ومن يمتلكه فقد امتلك كل ما يرغب فيه.. بل يستطيع المرء بالذهب ادخال الارواح الى الجنة) (Roll, 1953,65). وتشير بعض التقديرات انه خلال الفترة (١٥٠٣-١٦٦٠) نقل من أمريكا الى اسبانيا ١٨١ طن من الذهب و١٧٠٠٠ طناً من الفضة (لوفران، بدون تاريخ، ٧٤)، وقد طبقت اسبانيا سياسة نقدية خالصة، اذ منعت تصدير الذهب والفضة خارج البلاد اعتقادا منها ان ثروتها تزداد كلما زاد تكدس المعادن النفيسة (جامع، ١٩٦٨، ٤١) مما ادى الى ارتفاع الاسعار بمعدل ثلاثة الى اربعة اضعاف ما كانت عليه في القرن الرابع عشر(*) وقد لاحظ الاسبان ان الأرض الجديدة لا تزخر بالمعادن الثمينة فحسب وانما يوجد فيها زراعة هامة كالقطن والسكر والكثير من المواد الاولية التي كانت اوربا بحاجة ماسة اليها لذلك فكر الاسبان في انشاء مزارع واسعة متخصصة في محاصيل معينة كالقطن والتبغ والسكر والبن ... الخ وكانت السخرة والعمل الاجباري مصدراً آخر لعمليات النهب، الا ان استخدام العمالة المحلية واجهت صعوبات كبير بسبب ندرة السكان نتيجة للابادة الجماعية التي مارسها الاسبان بحق شعوب تلك البلدان، لذلك بذل الاسبان جهودا كبيرة في سد نقص الايدي العاملة اللازمة لاستغلال الأراضي الواسعة عن طريق استيراد الرقيق من أفريقية (زكي،١٩٨١ ، ٢٩) .

- الاستعمار الهولندي

اما هولندا فقد استغلت مستعمراتها بشكل بشع، اذ كانت تشتري بارخص الاثمان وتبيع باغلاها، وقد احتكرت شركة الهند الشرقية الهولندية تجارة الملايو فكانت وحدها تشتري منتجات تلك البلاد بالاسعار التي تحددها وبالشكل الذي لا يكفل إلا إنتاج كميات محدودة من التوابل التي تستهلكها اوربا ثم تبيعها الشركة في اوربا باسعار عالية، بل انها في سبيل المحافظة على تلك الاسعار العالية كانت تتلف كميات كبيرة من الانتاج في حالة زيادة العرض (عفيفي وعبد الكريم، ١٩٥٤، ١٤٦) .

(*) وقد اشار جان بودان سنة ١٥٦١ الى هذه الظاهرة (ظاهرة ارتفاع الاسعار) والتي فسرها الى وفرة الذهب والفضة ، وبذلك يكون أول من اشار الى (نظرية كمية النقود) .

- الاستعمار الفرنسي

اما في فرنسا فقد اطلق على السياسة التجارية بالسياسة الصناعية لانها اعتمدت على تشجيع الصناعة لزيادة ثروة البلاد من المعادن النفيسة وعلى اساس ان المحرك الحقيقي للصناعة هو التاجر، وفي عهد وزير المالية الفرنسي كولبيرت Colbert صدرت عدة قوانين واجراءات لتشجيع الصناعة، منها تقديم اعانات للمنتجين الصناعيين وجلب العمال المهرة والاعفاء من ضرائب الانتاج وكان كولبيرت يعتقد ان مالية الدولة تعتمد على الضرائب وان الضرائب تعتمد على كمية النقود المتداولة والتي تعتمد بدورها على الصادرات من السلع المصنعة والتي تعد المصدر الأساسي لزيادة المعادن النفيسة (الذهب والفضة) في البلاد. لذلك فان هذه السياسة ادت الى تراكم رأس المال نتيجة للارباح الطائلة التي حققتها فرنسا من مستعمراتها في أمريكا وأفريقيا واسيا، والتي ادت بدورها الى تطوير الصناعة الفرنسية وخلق فائض في الانتاج الصناعي الذي كان يصدر الى المستعمرات باسعار باهضة واستيراد والمواد الاولية باسعار بخسة، مما ادى الى استمرار عملية تراكم رأس المال ممهدا الطريق للرأسمالية الناشئة (زكي، ١٩٨١،٤٢-٤٣).

- الاستعمار البريطاني

اما بالنسبة لبريطانيا فعلى الرغم من انها دخلت متأخرة في مجال الكشف الجغرافي الا انها استطاعت ان تكون امبراطورية مترامية الاطراف في مختلف انحاء العالم وقد اطلق على السياسة البريطانية (بالسياسة التجارية)، من خلال دعم الصناعات التصديرية وتوسيع نطاق الاسواق الخارجية للسلع البريطانية وتشجيع الصناعة الوطنية.

واجتذاب العمال المهرة من هولندا وفرنسا والقضاء على نظام الطوائف الحرفية ومنح الكثير من الامتيازات للصناع والتجار، ولم يمنع الانكليز من خروج الذهب والفضة اذ كانت ضرورية لشراء المواد الاولية اللازمة للصناعة المحلية كالقطن والحرير والصوف فالمهم تحقيق ميزان تجاري فائض (جامع، ١٩٦٨، ٧).

وقد أصدر ملوك بريطانيا عدداً من القوانين الى تحكم سيطرة الاحتكارات ومنها (قانون النساجين) ١٥٥٥ والذي تضمن احتكار صناعة المنسوجات في العالم كما صدر (قانون الملاحة) ١٥٥٩ والتي احتكرت بريطانيا بموجبه تجارة نقل السلع من والى المستعمرات والتي حققت بريطانيا من ورائها ارباحاً طائلة وجدير بالذكر ان بريطانيا شجعت الإنتاج في المستعمرات بما يحقق مصلحتها وخاصة إنتاج المواد الأولية التي تحتاج اليها الصناعة البريطانية دون السلع المصنوعة مما ادى الى تخصص المستعمرات في انتاج المواد الأولية اللازمة للصناعة البريطانية، في حين تخصصت الدولة الام بالسلع المصنعة التي كانت تصدر الى المستعمرات باسعار باهضة (عفيفي وعبد الكريم، ١٩٥٤، ٢١٧-٢٣٠) .

وخلاصة القول ان حركة الاكتشافات الجغرافية ادت الى تحويل كميات هائلة من الفضة والذهب الى اوربا من دول امريكا اللاتينية وافريقيا الغربية واليابان، اذ قدرت كمية الذهب المحولة ٧٧٣٨ ماركاً ذهبياً والفضة بحوالي ١٥٩٧٤ ماركاً فضياً، مما ادى الى تراكم راس المال في اوربا كما موضح في الجدول الاتي:

الجدول ١

كميات الذهب والفضة التي تم تحويلها من دول امريكا اللاتينية وافريقيا واليابان الى اوربا خلال الفترة ١٥٠٠ - ١٨٠٠

الدولـة	الفتـرة	القيمة بملايين الماركات الذهبية	القيمة بملايين الماركات الفضية
المكسيك والهند الغربية	١٨٠٠-١٥٠٠	٦٣٢	-
بيرو	١٨٠٠-١٥٣٤	١٠٥٠	٢٤٢٠
نيوجراندا	١٨٠٠-١٥٣٧	١٦٦٠	-
شيلي	١٨٠٠-١٥٠٠	٤٧٠	-
البرازيل	١٨٠٠-١٧٠١	٢٤١٦	-
بوليفيا	١٨٠٠-١٥٤٥	-	٥٢٨٢
المكسيك	١٨٠٠-١٥٢٢	-	٨٢٧٢
المجموع	-	٦٢٢٨	١٥٩٧٤
افريقيا الغربية	١٨٠٠-١٥٠٠	٨١٠	-
اليابان	١٨٠٠-١٥٠٠	٧٠٠	-

المصدر: رمزي زكي، التاريخ النقدي للتخلف، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٧، ٣٤ ــ ٣٦.

٢. التطورات النقدية والمصرفية وعملية تراكم رأس المال

لقد حرمت الكنيسة الكاثوليكية سعر الفائدة (الربا) وذلك استنادا للنصوص الدينية المختلفة التي وردت في الكتاب المقدس التي شجبت الربا صراحة ولم تسمح بالاقراض بفائدة، كما حرم اباء الكنيسة الاوائل الاقراض بفائدة، وكان في مقدمة هؤلاء القديس توما الاكويني (كبة، ١٩٧٠، ٤١٠)، الا انه في فترة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر ظهرت افكار معارضة للاراء الكنيسة التي كانت تحرم الفائدة، وقدمت تلك الافكار تبريرات لسعر الفائدة وخاصة التبريرات التي قدمتها الحركة البروتستانتية وحركة كالفن (١٩٠٥ ــ ١٥٦٤) الذي حلل استيفاء سعر الفائدة في حالة استخدام القروض في الاعمال التجارية والصناعية والزراعية (Tawny, 1942, 16).

لقد كان لتبرير سعر الفائدة نصرا كبيرا للتجار والطبقة البرجوازية الصاعدة والذين اكدوا ان الارباح الطائلة التي تكونت عبر عمليات الاستكشاف الجغرافي لم تنمو الا مع توسيع التجارة ذاتها، وهذا لن يتحقق الا في ظل تنظيمات جديدة لعالم النقود وتطور الصيرفة لذلك ظهرت البنوك والشركات المساهمة والبورصات، والتوسع في عمليات المضاربة وظهور القروض العامة، كما تم تأسيس المصارف التجارية ومنها برشلونة التي انشات مصرفها عام ١٤٠١ لعمليات الإيداع وتطورت حركة الصيرفة فيما بعد ولاسيما في هولندا التي اقامت مصرف امستردام ١٦٠٠ الذي مارس عمليات الصيرفة من إيداع واقراض الى خصم للأوراق التجارية، كما مارس عمليات اصدار النقود الورقية واوراق البنكنوت، ثم انشئت مصارف في المراكز التجارية في مدينة روتردام وهامبورك في المانيا ١٦١٩. كما أسست لندن مصرفها ١٦٩٤. وتأخرت فرنسا في هذا المجال حيث أسست مصرف فرنسا ١٨٠٠ (الجاسم، ١٩٦٩، ٢٥١)، بالطبع كل ذلك ادى الى توسع النشاط التجاري والاقتصادي، اذ إن الفائدة كانت احدى القنوات الرئيسة في عملية تراكم رؤوس

الاموال المصرفية والتي اندمجت مع رؤوس الاموال العاملة مباشرة في العمليات الانتاجية من خلال الاتصال المباشر بين المنتجين والتجار والمرابيين بحيث تركزت الثروة بيد قلة على حساب الاكثرية مما ادى الى تراكم الثروة بيد الطبقة البرجوازية الصاعدة .

٣. الشركات الاحتكارية وعملية تراكم رأس المال

حث التنافس الاستعماري للاستحواذ على المستعمرات في أفريقيا واسيا والعالم الجديد تلك الدول الى تاسيس الشركات الاحتكارية، اذ كانت تساندها تلك الدول في احتكار التجارة في مناطق معينة فقد حاولت اسبانيا مواجهة الدول الاوربية الاخرى، فاتجهت الدول الى تشجيع تكوين الشركات التجارية التي تحظى باحتكار تجارة مستعمراتها فانشئت شركة كراكاس ١٧٢٨ ونجحت اعمالها في احتكار تجارة الكاكاو والماشية، كما تأسست شركة الفلبين عام ١٧٣٣ التي احتكرت التجارة مع الفلبين (عفيفي وعبد الكريم، ١٩٥٤، ١٣٨) .

كذلك اهتمت هولندا بتأسيس الشركات الاحتكارية وقدمت لها امتيازات كبيرة وشرعت القوانين التي تعزز من مكانة هذه الشركات في مجال التجارة الخارجية مع المستعمرات وقد استطاعت هذه الشركات تحقيق أرباح طائلة من تجارتها مع المستعمرات، وذلك عن طريق احتكار تجارة بعض السلع فكانت تحتكر تجارة البيع والشراء لبعض السلع او المناطق، ففي سنة ١٦٠٢ تم تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية، ومنحت الحكومة الهولندية هذه الشركة حق احتكار تجارة الشرق، واقامت هذه الشركة عدة مراكز تجارية في بلاد الشرق وخاصة في الصين وفي اليابان، وكانت هذه الشركات تنقل منتجات الشرق من النحاس والقصدير والحرير والشاي والورق والتوابل والقطن.. الخ الى اوربا وتبيعها باسعار خيالية محققة بذلك ارباحاً خيالية والتي يعاد استثمارها في أوربا لانتاج السلع المصنعة، كما احتكرت تلك الشركة تجارة الملايو فكانت وحدها تشتري منتجات تلك البلاد بالأسعار التي تحددها بل انها في سبيل المحافظة على الاسعار كانت تتلف الفائض من الإنتاج للمحافظة على الأسعار كما اسس الهولنديون شركة الهند الغربية الهولندية وشركة الشمال الهنولندية ومنحتها الدولة احتكار مصائد الأسماك ولاسيما احتكار الحوت وبيع منتجاته من الزيت والجلود (Heaten, 1952, 277) .

اما فرنسا فقد اسست شركة الهند الشرقية الفرنسية سنة ١٦٦٤ ومنحت عدة امتيازات وعهد اليها احتكار تجارة الشرق، كما تم تأسيس شركة اخرى باسم شركة الهند الغربية مهمتها احتكار التجارة بما فيها تجارة العبيد مع المستعمرات الفرنسية في كندا واجزاء من الهند الغربية، كما تم تاسيس شركة الشمال ومنحت حق احتكار التجارة في منطقة البلطيق، وكان الهدف الاساس من تاسيس الشركات الفرنسية هو مواجهة المنافسة الحادة التي كانت تواجهها فرنسا من بقية الدول الاوربية واحتكار تجارة بعض السلع والمناطق الخاضعة للنفوذ الفرنسي (لوفران، بدون تاريخ، ٩٢).

اما في بريطانية فقد أُنشئت اول شركة عام ١٦٠٠ باسم شركة الهند الشرقية البريطانية في عهد الملكة اليزابيت الاولى واحتكرت التجارة مع الهند، وقد لعبت هذه الشركة دورا كبيرا في نهب ثروات الهند، وفي عام ١٦٧٢ تكونت الشركة الافريقية

الملكية التي منحت احتكار التجارة مع المستعمرات الانكليزية في امريكا وفي عام ١٦٩٠ تأسست شركة ادورد لويد للتأمين البحري.

وبذلك استطاعت تلك الشركات من تجميع رؤوس اموال ضخمة مما ساعدها على توسيع اعمالها التجارية واحتكار التجارة مع المستعمرات وتحقيق ارباح طائلة والتي اعيد استثمارها في النشاط الصناعي والزراعي، مما ادى الى تراكم رأس المال (زكي، ١٩٨١، ٤٤).

٤. التطور الصناعي والزراعي وعملية تراكم رأس المال الأولى

لقد كان الهدف الأساس للسياسة التجارية الأوربية هو الاستحواذ على اكبر كمية من المعادن النفيسة ومنع خروجها وتحقيق ميزان تجاري موافق للبلدان الاستعمارية، لذلك فان افضل وسيلة لتحقيق هذا الهدف هو تطوير القطاع الزراعي والصناعي بما يحقق الاكتفاء الذاتي، وقد تحقق ذلك فعلا من خلال مجموعة من الإجراءات منها تشجيع الأفراد لاقامة المصانع، وتقديم الإعانات لهم واعفائهم من الضرائب والرسوم الكمركية، والعمل على جذب العمال المهرة كما حرمت تصدير المواد الأولية بشكلها الخام الا بعد تحويلها الى سلع مصنعة ذات قيم مرتفعة، ويتم تصديرها بعد ذلك باسعار باهضة، فضلا عن الاهتمام بالجودة العالية للسلع المنتجة لضمان المنافسة الاجنبية، مما ادى الى تطور كبير في الانتاج الصناعي كما ونوعا وتطور الصناعات القائمة وظهور صناعات جديدة (سلمان، ١٩٦٦،٤٤-٤٧) .

كما اهتمت هذه الدول بالقطاع الزراعي الذي يلبي الحاجات الغذائية للسكان وتقلل من استيراد المواد الغذائية، فضلا عن تجهيز القطاع الصناعي بالمواد الأولية اللازمة للصناعة وبذلك يستطيع القطر تحقيق الاكتفاء الذاتي الذي يؤدي الى تقليل الاستيرادات وزيادة الصادرات، وبالتالي تحقيق فائض في الميزان التجاري (المعادن النفيسة) والتي يتم إعادة استثمارها في النشاط الإنتاجي، مما يؤدي إلى زيادة تراكم الثروة في أوربا والذي تحقق فعلا في معظم الدول الأوربية ولو بدرجات متفاوتة، من دولة الى أخرى، فاسبانيا والبرتغال التي استحوذت على مناجم الذهب والفضة في العالم الجديد لم تحسن استخدام ما حصلت عليه في تنمية اقتصاداتها، بينما تمكنت فرنسا وانكلترا وهولندا من استثمار الارباح الوفيرة الى استحوذت عليها من تجارتها في تنمية مواردها في الزراعة والصناعة وبذلك استطاعت أن تحقق عمليات التراكم الرأسمالي (عفيفي وعبد الكريم، ١٩٥٤، ١٩٠-٢٥٠).

الخلاصة والاستنتاجات

بعد عرض وتحليل حركة الاكتشافات الجغرافية وتاثيراتها على التراكم الاولى لرأس المال وانتعاش الاقتصاد الاوربي توصل الباحث الى عدد من الاستنتاجات منها :

١. تحول طرق التجارة من الشرق العربي الاسلامي الى منافذ جديدة عبر الاطلسي والمحيط الهندي بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح. وبذلك فقد العرب المسلمون السيادة على التجارة الدولية، وتدهورت العديد من المدن التجارية العربية التي كانت مركزا للتجارة وبذلك فقدت الدولة والتجار العرب الموارد المالية التي كانوا يحصلون عليها من نقل السلع عبر اراضيهم فضلا عن الرسوم الكمركية

والضرائب التي كانت تفرض على التجارة مما ادى الى تدهور الحياة الاقتصادية للدولة العربية الاسلامية.

٢. تراكم الثروة في اوربا عن طريق عمليات النهب والسلب للمعادن الثمينة (الذهب والفضة) والاستغلال البشع للمستعمرات عن طريق استيراد المواد الاولية باسعار رخيصة وتصدير السلع المصنعة باسعار باهضة، ومن ثم تحقيق ارباح خيالية، اذ تم استثمارها في الزراعة والصناعة محققة المزيد من الثروات، مما يدعم فرضية البحث .

٣. تحقيق ارباح طائلة من تجارة الرقيق، وهي التجارة التي كانت تعد اول استثمار دولي لرأس المال على نطاق واسع، اذ حقق الاوربيون الذين استثمروا أموالهم في شراء السفن لنقل العبيد ثراء فاحشاً لم يسبق له مثيل في أي نشاط انتاجي آخر.

٤. زيادة نفوذ طبقة التجار الذين بدؤا باستثمار جزء من أرباحهم في القطاعات الإنتاجية والنشاطات المصرفية الاخرى مما ادى الى خلق فائض في الإنتاج الصناعي والزراعي المهيأ للتصدير الى المستعمرات بأسعار باهضة، فضلاً عن الأرباح المتحققة من إقراض رؤوس أموالهم، كل ذلك أدى الى زيادة تراكم الثروة في اوربا وظهور الرأسمالية التجارية.

المراجع

اولاً- المراجع باللغة العربية

١. إبراهيم كبة، تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠.
٢. احمد جامع، الرأسمالية الناشئة، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٦٨.
٣. أمين مصطفى عفيفي واحمد عزت عبد الكريم، تاريخ أوربا الاقتصادي، مكتبة الانكلو المصرية، ١٩٥٤.
٤. جورج لوفران، تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، ترجمة هاشم الحسيني دار الحياة، بيروت، بدون تاريخ.
٥. خزعل البيرماني، التاريخ الاقتصادي، بغداد، ١٩٦٨.
٦. رمزي زكي، التاريخ النقدي للتخلف، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨١.
٧. عبد الحميد البطريق، تاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة الى مؤتمر فينا، دار النهضة المصرية، ١٩٧١.
٨. عبد الرسول سلمان، معالم الفكر الاقتصادي، بغداد، ط١، ١٩٦٦.
٩. محمد رضا الجاسم، القواعد الأساسية في الاقتصاد التطبيقي، بغداد، الجزء الأول، مطبعة التضامن، ١٩٦٩.
١٠. محمد عدنان مراد، صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٨٢.
١١. وول ديوارث، قصة الحضارة، الاصلاح الديني، الجزأين الثالث والعشرين والرابع والعشرين، ترجمة عبد الحميد يونس، بدون تاريخ.

ثانياً- المراجع باللغة الأجنبية

1. Edmund wittaker , Schools and Streams of Ecnomic Thought , London , 1951.
2. Eric Roll , Ahistory of Ecnomic Thought, Faber and Faber , LTD , London , 1953.
3. Herbert Heaton , Economic history of England , London , 1952.
4. R. H. Tawny , Religion and the Rise of Capitalism , London , 1942.

The Effect of the Geographical Discoveries on the Process of Primary Capital Accumulation in Europe

ABSTRACT

This research aims to study the effect of geographical discoveries movement on the primary capital accumulation in Europe depending on the historical analytical method. The study includes three parts. The first deals with the factors which encouraged this movement, where as the second part discussed the development of this movement, the end part deals with and analysis the factors which caused to the primary capital accumulation.

The researcher reached to many conclusion that the discoveries movement caused to capital accumulation through the stolen process of expensive metals and the slave trade, besides that inadequate trade between Europe and the colonies.